

الفكر التربوي ودوره في بعث النهضة في الوطن العربي رفاعة الطهطاوي نموذجا Educational thought and its role in reviving the Renaissance in the Arab world "Refaa Al-Tahtawi as a model"

لعروسي عبد الله*
Larou03@gmail.com
جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال 2020/05/02 تاريخ القبول 2020/08/02 تاريخ النشر 2020/12/01

ملخص:

لقد تطرقنا في هذا المقال الى دور الفكر التربوي في بعث النهضة العربية، وكان رفاعة الطهطاوي من أبرز رجال الاصلاح الذين اهتموا بالتربية و اعتبروها مقوما من مقومات النهضة العربية، وأكد الطهطاوي أن التربية ضرورية للإنسان لا يمكنه الاستغناء عنها، لأنها ببساطة طريق التقدم والتمدن، فالأمة التي ترتقي برجالها ونسائها تمضي في طريق التقدم على أساس سليم. كما يجب أن لا تقتصر التربية على الذكور دون الاناث، ويجب أن يعمم التعليم في المرحلة الاولى على كافة أفراد المجتمع غنيهم وفقيرهم، لا يقصي الطهطاوي المرأة من التعليم، متأثراً بالمجتمع الفرنسي دافع عن حريتها الاجتماعية جنبا إلى جنب مع الرجل، لكن في حدود شرعيتها، وهذا ما جعله يجزم بأن أساس التمدن في سائر الاقطار هو العدل والانصاف. يشير كذلك أن من اسباب التقدم هو الاهتمام بالعلم والعلماء، لأنه ينشأ عنه سعادة المملكة، فالواجب على الحاكم مكافأة أهل النبل و أرباب التصنيف و التأليف من أهل التعليم والتفهم، ويضيف كذلك أن التربية ترتبط بالتمدن ارتباطا جديا فهي من جهة تؤهل الأمة للوصول الى التقدم، ومن جهة أخرى فالتعليم ركن من أركان التمدن، لذلك تندرج التربية في مسار الفكر الوطني وتصبح أساس الانتفاع بأبناء الوطن حسب رأي الطهطاوي.

الكلمات المفتاحية: الفكر التربوي; التعليم; رفاعة الطهطاوي; النهضة العربية; الاصلاح.

ABSTRACT :

In this article, we touched on the role of educational thought in resurrecting the Arab Renaissance, and Refa'at Al-Tahtawi was one of the most prominent reformers who took care of education and considered it a component of the Arab Renaissance, and Al-Tahtawi stressed that education is necessary for a person that he cannot do without, because it is simply the path of progress and urbanization, for the nation It elevates its men and women on the path of progress on a sound basis. Also, education should not be limited to males without females, and education must circulate in the first stage to all members of society, rich and poor, Tahatawi does not exclude women from education, influenced by French society, defended her social freedom alongside men, but within the limits of her legitimacy And this is what made him assert that the basis of urbanization in other countries is justice and fairness. It also indicates that one of the reasons for progress is the interest in science and scholars, because the happiness of the kingdom arises from it, so the ruler must reward the people of nobility and the owners of classification and authorship from the people of education and

* لعروسي عبد الله

understanding, and he also adds that education is related to urbanization in a dialectical way, as it is on the one hand that qualifies the nation to reach progress, On the other hand, education is one of the pillars of urbanization, so education falls in the path of national thought and becomes the basis for benefiting the people of the country, according to Al-Tahtawi's opinion.

Keywords: Pensée éducative; L'éducation; Refaa Al-Tahtawi; Renaissance arabe; La Réforme

مقدمة:

إن الفكر التربوي العربي في العصر الحديث شأنه شأن الفكر على وجه العموم كائن حي متصل الوجود، لا يبدأ من نقطة الصفر، وإنما هو وليد مراحل أخرى سابقة، وهو - قياسا على ذلك - والد مراحل أخرى تالية، مما يجعل من المحتم على الباحث في أي فترة من فتراته أن يقف وقفة، مهما قصرت أمام الميراث السابق عليها، وسعيا وراء تتبع خيوطه العامة، وليس من السهل على الباحث أن يتحدث عن التراث الفكري العربي الاسلامي في صورة سمات عامة، ذلك لأن هذا التراث امتد عبر ثلاثة عشر قرنا من الزمان وشمل كما كبيرا من البلدان مما يجعله متنوعا ومختلفا إلى درجة يصعب معها الحصر والتصنيف.¹

إن هذا التنوع والاختلاف طرح مسائل منهجية عدة بالنسبة لقضية الفكر التربوي العربي فأول هذه المسائل تتناول نشوء الفكر التربوي وبنائه، بحيث أن البحوث التربوية الحديثة في فلسفات التعليم وطرقه تولى مبدأ اجتماعية المعرفة اهتماما خاصا، فهناك رابط متين بين الفكر والمجتمع، ومبدأ اجتماعية المعرفة لديهم مبني على ثلاثة ركائز أولها ارتباط أنماط التفكير السائدة في عصر من العصور بمقتضيات العمل الجماعي، ثانيا انطباق الفكر بالوضع الاجتماعي بحسب المكان والزمان، ثالثا شفافية الفكر الفردي المعلن بالنسبة للأصول الاجتماعية التي ينبثق منها.²

المسألة الثانية تتناول الفكر التربوي وجوده بين فلسفة التربية كمسعى لتحديد غايات التعليم وبين المناهج والأساليب المعتمدة لتحقيق هذه الغايات أما المسألة الثالثة فقد تمحورت حول امكانية اعتبار العالم العربي وحدة حضارية يمكننا من خلالها الحديث عن نظام تربوي عام، أو نقسم العالم العربي إلى وحدات حضارية تتفرد كل وحدة بنظامها التربوي الخاص.³

رغم اختلاف الرؤى حول طبيعة الفكر التربوي ومنهجيته وعلاقته بالمجتمع أو بباقي المجالات الحياتية الأخرى، إلا أنه لطالما كان من المقومات الأساسية لتحقيق النهضة العربية، فمن الملاحظ أن معظم رجال الإصلاح منذ ابن تيمية إلى وقتنا المعاصر اهتموا بالتربية كأساس من الأساسات التي شيّدوا عليها مشاريعهم الإصلاحية النهضة، وقد أبرز كل مفكر مكانة الفكر التربوي في المجتمع ودوره في تحقيق التطور والتمدد للمجتمع، كما كان للخلفية الفكرية لكل مفكر الأثر الواضح حول مدى نجاح الطرح التربوي وإظهار قيمته في المجتمع .

إن حاجة المجتمع للنهوض ومسايرة الركب الحضاري تستدعي مشاركة كل النخب المثقفة في المجتمع بغض النظر عن مشاربها وتوجهاتها. ومن بين الذين أسهموا في الرقي الفكر لمجتمعهم والأمة العربية الإسلامية قاطبة نذكر رفاة الطهطاوي⁴ أحد رواد الإصلاح في القرن التاسع عشر، وكما قال عنه محمد عمارة في كتابه الاعمال الكاملة أنه أول نافذة يطل منها الشرق على الحضارة الغربية.

والاشكالية التي يمكن صياغتها لهذه الدراسة هي.

- ماهي مكانة التربية في فكر رفاة الطهطاوي؟
 - وماهي اهتمامات الطهطاوي التربوية لتحقيق التقدم؟ وكيف أسهم الفكر التربوي في تحديث المجتمع؟
- وفي محاولة منا للإجابة على هذه التساؤلات حددنا جملة من النقاط قصد معالجتها وتحليلها للكشف عن الدور الفعلي للفكر التربوي في بعث النهضة في العالم العربي؟

وتتمثل هذه النقاط فيما يلي:

- 1- ضرورة التربية وأثرها في المجتمع.
- 2- تربية وتعليم المرأة.
- 3- قيمة العلم والعلماء عند الطهطاوي.
- 4- التربية وحدانته المجتمع.

1. أهمية التربية وأثرها على المجتمع عند الطهطاوي

اهتم الطهطاوي بقضية التربية والتعليم اهتماما عمليا ونظريا، فقد درس بالأزهر ودرس به قبل البعثة علوم الأزهر بالطريقة المتعارف عليها آنذاك، وكان احتكاكه بنظام تربوي وتعليمي مغاير في فرنسا أثناء البعثة نقطة البداية في تعرفه على مناهج ونظريات جديدة في التربية⁵ وكان قبل رحلته إلى فرنسا قد اشتغل بالتدريس في الفترة ما بين 1822-1824 وذلك بعد أن تخرج من الأزهر سنة 1821، وعمل واعظا بالجيش في الفترة بين 1824 إلى 1826.⁶

بعد عودته من باريس تولى وظائف التدريس في معاهد علمية مختلفة بدأ كمترحم بمدرسة الطب⁷. ثم انتقل عام 1833 إلى مدرسة الطوبجية⁸، كانت النظرية التربوية التي عرفها في باريس هي ثمرة مطالعته الجادة لكبار فلاسفة التربية أمثال روسو وفينيلون، تحدث الطهطاوي عن التربية في مؤلفاته. "مناهج الأبواب" وتوسع في الحديث عن الفكر التربوي في كتاب "المرشد الأمين".

ضرورة التربية: (حاجة المجتمع للتربية) يرى رفاة الطهطاوي أن التربية ضرورية للإنسان لا يمكنه الاستغناء

عنها، وقد ميزه الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات بالعقل الذي هو وسيلة دفاع وحماية في نفس الوقت.

وقد قارن الطهطاوي قوة الحيوان الجسدية وقوة الانسان العقلية على النحو التالي "منحت الحكمة الإلهية الحيوانات الانسية والوحشية سلاحا تدفع به عن نفسها وتسطو به على أبناء جنسها وغير جنسها، أما الانسان فهو مجرد عن ذلك، ومعرض بجميع أعضائه للمهالك"⁹ عوضت القدرة العقلية للإنسان القوة الجسدية التي منحت لغيره، وبواسطة العقل بإمكانه التعلم واكتساب المهارات ولا يتم ذلك إلا بالتربية، يقول الطهطاوي "الانسان خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شيء إلا بالتربية والتعليم فوجب تربيته وتعليمه وإرشاده للمعيشة والتكلم وتعويدته على التفكير والتأمل"¹⁰.

إذن فالتربية ضرورة ملحة للبشر بممارسة سنة الحياة والعيش واكتساب الخبرات والمهارات، فهي طريق التقدم والتمدن، ومن خلالها يمكننا بناء مجتمعات متحضرة قائمة على أسس متينة، يذكر الطهطاوي حسن تربية الآحاد ذكورا وإناثا وانتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعية يعني الأمة بتمامها"¹¹ ويؤكد الطهطاوي على ضرورة التربية للمجتمع، فالأمة التي ترتقي برجالها ونسائها تمضي في طريق التقدم على أساس سليم، وما الحضارة اليونانية إلا مثلا واضحا على دور التربية في الارتقاء بالمجتمع يقول الطهطاوي "إن السبب الأعظم في كثرة فحول الرجال وكبراء الأبطال في بلاد اليونان في أيام جاهليتهم إنما هو كان بعد إحسانهم تربية الأطفال"¹² إن الاهتمام بتربية النشء هي خاصية الأمم المتقدمة، هناك من يرى أن التربية هي "تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته إلى بلوغه حد الكبر، وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية"¹³ هذا المفهوم يقسم التربية إلى قسمين حسية وهي تربية الجسد ومعنوية وهي تربية الروح.

إن تربية النشء تحتاج إلى أنواع ثلاثة من الغذاء مختلفة في موضوعها الأولى تغذية المراضع للأطفال بالألبان، والثانية تغذيتهم بإرشاد المرشد بتأديبه الأولى للأطفال وتهذيب أخلاقهم، وتعويدهم التطبع بالطباع الحميدة، والآداب والأخلاق، الثالثة تغذية عقولهم بتعليم المعارف والكمالات، وهذه وظيفة الأستاذ المري.¹⁴ يرى الطهطاوي جازما أن الأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها¹⁵ فالتربية شرط أساسي وضروري قبل أن يتجه المجتمع إلى طلب التحضر والتمدن، فترسيخ آداب المواطنة وحب الانتماء والاعتزاز بالهوية سابق كل تقدم، وإذا تحققت هذه الآداب وغيرها وترسخت في نفوس الأفراد، أكيد سيصبح النهوض والتطور من أيسر الأمور.

- أثر التربية على المجتمع:

يرى الطهطاوي أن التربية ضرورية للبشر وذلك لأن الله وهبهم العقل للتعليم واكتساب المهارات والخبرات، ولغة دورا مهما إلى جانب العقل في تكوين المجتمعات والحضارة وهذه الحضارة لا تقوم إلا بالتعامل بين الأفراد على نحو يؤدي إلى تطوير الأفكار وتناقلها وتعلم المعارف.¹⁶

التربية عند الطهطاوي لا تقتصر على الذكور دون الإناث لأجل بناء مجتمع متطور ويستدل على ذلك بالتربية في المجتمع اليوناني التي كانت حازمة، والتعليم هو جزء من التربية في نظر الطهطاوي لذلك يقسم التعليم إلى مراحل ثلاثة، التعليم الأول الابتدائي والتعليم الثانوي التجهيزي والتعليم الكامل الانتهائي، والمرحلة الأولى هي أساس كل المراحل اللاحقة، على شرط أن تعمم هذه المرحلة على كافة أفراد المجتمع غنيهم وفقيرهم.¹⁷ إذن يمكن القول أن قياس نجاح أي مجتمع يبني على مدى نجاعة نظامه التربوي التعليمي، فالتربية طريق كل تقدم وأساس كل حضارة.

2. تربية وتعليم المرأة

ساهمت حملة نابليون على مصر في بعث كثير من الاهتمامات والقضايا بالإضافة إلى مجال الترجمة والنشر والصحافة، فتحت الباب واسعاً أمام انشغالات بعض المفكرين حول ظروف الحياة الاجتماعية بما فيها العلاقة القائمة بين الفرد ومجتمعه من ناحية الاهتمام والتمييز، وفي هذه النقطة بالذات أثبتت قضية المرأة باعتبارها فرداً من أفراد المجتمع المصري أو الفرنسي وتعتبر هذه القضية دخيلة بالنسبة للمجتمع المصري كونها أثبتت بعد دخول الحملة على مصر.

وكان أول شيء شد اهتمام رفاة الطهطاوي بعد وصوله إلى فرنسا عام 1826 هو الحرية التي تتمتع بها المرأة الفرنسية ووضعها الممتاز في المجتمع الفرنسي بالنسبة إلى ما ألفه الطهطاوي في تقاليد بلاده.¹⁸ يعتبر رفاة الطهطاوي في صدارة المفكرين المجددين الذين أثاروا قضية المرأة¹⁹ في محاولة منه إعادة الاعتبار إن صح القول للمرأة كعنصر في المجتمع وهو في حديثه عن مكانة المرأة في المجتمع الفرنسي يتعرض للحرية المطلقة التي تتمتع بها المرأة داخل مجتمعها. وهي تلك الحرية التي أدانها الجبرتي إلا أن الطهطاوي رأى أنه من الواجب التعرض لهذه القضية من شتى جوانبها المختلفة دون الاكتفاء بالأحكام البسيطة العامة يذكر الطهطاوي "أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الجديدة والخسيسية والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة والالتزام بين الزوجين."²⁰

إذن حسب رأي الطهطاوي عفة المرأة راجعة إلى التربية أما مشاركتها الحياة الاجتماعية فتلك مسألة أخرى، كما يتضح من كلامه أنه يريد أن يبين للرأي العام المصري أن سفور المرأة وتحررها. لا يؤدي إلى تدهور الأخلاق عند نساء الطبقة المتوسطة، ولا شك أن الطهطاوي كان من أبناء الطبقة المتوسطة.²¹ يركز الطهطاوي على التربية في الحفاظ على شخصية المرأة وسلوكياتها وتشتهر المجتمعات العربية وطبقاتها الوسطى بتشددتها تجاه كل ما يتعلق بالمرأة ويذهب رفاة الطهطاوي إلى الجزم بأن أساس التمدن في سائر الأقطار هو العدل والانصاف اللذان أوصت بهما شريعة الاسلام السمحة لذلك ركز في كتابه " المرشد الأمين للبنات والبنين" على ضرورة تعليم النشاء والبنات خصوصاً وتربيتهم تربية دينية أخلاقية تهدف إلى إصلاح المجتمع.

اجتهد الطهطاوي في الدفاع عن حرية المرأة ودعا إلى تعليمها وأن تجلس البنات إلى مقاعد الدراسة كما يجلس الصبيان ويناهض الآراء الداعية إلى إجماع المرأة عن التعليم والتي تستند إلى بعض الآثار على حد قولهم الناهية على تعليم المرأة كقولهم "بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن".²²

يفند الطهطاوي ذلك كله بأن هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة، إضافة إلى أن التاريخ الاسلامي حافل بالأمثلة التي تظهر مشاركة المرأة في التعليم والكتابة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لخير دليل على ذلك كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر وغيرهن.

يصف رفاة الذين يرون أن لا حاجة للمرأة في التعليم بذوي العقلية الجاهلية والعادات البدائية التي تدعوا إلى التخلف وما دفعهم إلى التعالي في الغيرة على بناتهم، ولا يكتفي الطهطاوي بتعليم المرأة القراءة والكتابة والحساب فقط بل يدعو إلى تعليمها المعارف والآداب ويرى أن "الأدب في النساء زيادة لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية، فنسبة ذكاء المرأة الطبيعي إلى أخلاقها وعوائدها كنسبة لطافتها وظرافتها إلى أعضائها الظاهرة فهي بالأدب جميلة حسا ومعنى..."²³

ربما الذي تغلب عليه شقوة البساطة والتزمت مما هو جديد يجد أن الطهطاوي يريد أن يخرج المرأة العربية من بين طيات حجابها إلى حالة السفور والعري لكن الرجل أخذته الشفقة بالمرأة العربية المصرية المضطهدة وهاله ما رآه في المجتمع الفرنسي من اجتهاد للمرأة ومكانتها المعتبرة في المجتمع جنبا إلى جنب مع الرجل وخوضها في مختلف العلوم والمعارف ولم ينفرد الطهطاوي بالدعوة إلى تعليم المرأة بل نهج نهجه عدة مفكرين دعوا إلى تحرير المرأة العربية من الجهل وكان أحمد فارس الشدياق أحدهم، فألف كتابا في هذا الموضوع سماه "الساق على الساق" الذي صدر عام 1855م، وقال في دعوته إلى تعليم المرأة "فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندي أنه محمدا بشرط استعماله على شروطه وهو مطالعة الكتب التي تهذب الأخلاق وتحسن الاملاء فإن المرأة إذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكاييد واختراع الحيل...."²⁴

وكان فارس الشدياق ممن تأثروا بالغرب لذلك تحدث عن وضع المرأة في فرنسا وبريطانيا وذلك في كتابه "كشف المخبأ عن فنون أوروبا".

وقد ربط الطهطاوي بين حق المرأة في التعليم وحق العمل فهو لم يرسم حدودا تقف عندها المرأة بعد تحصيلها للعلم بل يمكنها إن اقتضت الحاجة أن تتعاطى بعض الأشغال والأعمال كما يتعاطاها الرجال، ويكون ذلك حسب طاقتها، ويذكر رفاة أن البطالة لدى المرأة تفتح لها آفاق في اختلاق الأباطيل وافتعال الأقاويل إذن فالشغل يبعدها عن كل ما من شأنه أن يفتح للمرأة تلك الآفاق.²⁵

إلا أن حديث رفاة عن حق المرأة في العمل تصده نقطتين هامتين في الشرع الاسلامي ألا وهما مسألة الحجاب والاختلاط مع الآخر ومسألة تقلد المرأة لمناصب عليا في الدولة كمنصب القاضي أو الإمام أو الخليفة أو

حتى الملك إن أمكن، فيما تخص الحجاب يرى رفاة أن المرأة لها الحق في ارتداء الحجاب الشرعي على أن تكشف وجهها ويديها فقط، وهذا دليل على أن رفاة لم يقف موقف الراض لحجاب المرأة بل رفض حجبتها في منزلها، واختلاطها بالآخر تحدده التربية الحسنة كما يضيف أن الخلوة حرام بين رجل وامرأة وتسقط حرمتها إذا زاد العدد أي لا ضرر أن يخلو عدة رجال بمجموعة من النساء في مكان العمل فقط ويؤسس الطهطاوي ذلك على أساس حسن التربية والثقة بين الطرفين.²⁶

3. - قيمة العلم والعلماء عند الطهطاوي

يقول رفاة الطهطاوي " إن دراسة العلم في حد ذاتها، أفضل ما يشتغل به الإنسان وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته، وأفضل لذات الدنيا وأن الفنون الأدبية المسماة بعلوم العربية، كلها آلة للعلوم الحقيقية، عقلية أو نقلية، فالمعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضها ببعض، وكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، ولأن كلا منهما متوقف على الآخر...."²⁷ ، يتحدث الطهطاوي عن لذة العلم والتعلم والتي لا يشعر بها إلا من خاض غمار البحث والتبصر، كما يشير كذلك إلى الرابطة القوية بين العلوم فبعضها يكمل البعض الآخر، ويضرب الطهطاوي مثال الأمم السابقة من اليونان والرومانيين وبلاد الاسلام واهتمامهم بالعلوم الحقيقية كما يقول والتي حققت لهم التمدن.

ويشير كذلك الطهطاوي إلى أن أعظم الوسائل والوسائط التي تعين على تقدم العلوم والفنون في مملكة من الممالك هي تشويق صاحب المملكة للأدباء والعلماء بالمكافأة اللائقة والتحف الملائمة، لأنه ينتج من التشويق المنافسة والمقارنة وينشأ عن ذلك سعادة المملكة.... فالحاكم الذي يعشق علو الشأن، يتخذ قواعد حكمه وضوابط ملكه تشريف أهل الفضل، ومكافأة أهل النبل، سواء كانوا من أرباب التأليف والتصنيف، أو من أهل التعليم والتفهيم، أو من أصحاب الاختراع والابداع، حتى يشهرهم بالشهرة المدوحة، ليبقى ذكركم وأثار مجدهم معلومة التاريخ، لمن يأتي من بعدهم، فلا تزال في أوطانه أشجار المعارف مثمرة، وأغصان اللطائف مزهرة، وتكثر المسابقة والمنافسة، وتستمر الدراسة والممارسة، وتفيض على المملكة بحار المعارف والعوارف...."²⁸

في مرحلة من الزمن قبل الطهطاوي توارث الناس بعض الأفكار المنفرة من العلم والعلوم وأن دارس العلوم هو إنسان مهموم ببعده عن عبادة الله وهناك حتى من أنضم شعراً في هذا الرأي.

أيها القوم الذي في المدرسة كل ما حصلتموه وسوسة

فكركم إن كان في غير الحبيب ماله في النشأة الأخرى نصيب

فاغسلوا بالراح عن لوح الفؤاد كل علم ليس ينجي في المعاد²⁹

نظرة الطهطاوي للعلم والعلماء هي عكس ذلك حيث أقر أن تعلم العلم والاشتغال به هو قيمة في حد ذاته، بل هو نوع من التطيب للنفس البشرية وفي ذلك يقول الطهطاوي " ... إن مطالعة الكتب لا يضيق منها

صدر الانسان في مدة عمره وفي مبادئ وأواخر أمره، لأنها تصلح حال الشباب، وتنفع في حال الكهولة، وتخفف الآلام وتفيد الصبر على نوائب الأيام ...

وهي لأهل المدن فكاهة ورفاهة ولأهل الريف مشغلة ونباهة، وفي الأسفار تخفف وعثاء السفر، كما تلتطف أحوال أهل الحضر، وهي وقاية تحفظ من القلق والوساوس، وينتصر بها الانسان على القلق والأرق فهي خير واقٍ وحارس³⁰.

أدرك الطهطاوي جيداً وهو في باريس قيمة العلم وأن الفرصة التي منحت له لا يمكن أن يعوضها، لذلك نجده منكباً على العلوم بمختلف مجالاتها سواءً في الطب أو التاريخ أو في الجغرافيا، كما أنه وعى جيداً الكلمات التي خاطب بها جومار³¹.

طلاب البعثة المصرية في حفل أقيم في 4 تموز 1828 لتوزيع الجوائز على الناجحين قائلاً " إنكم منتدبون لتجديد وطنكم الذي سيكون سبباً في تمدن الشرق بأسره ... أمامكم مناهل العرفان، فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهنا قبسة المضيء بأنواره أمام أعينكم، فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا ..."³².

كانت هذه الكلمات حافراً للطهطاوي وباقي أفراد البعثة لأن ينشغلوا بطلب العلم وفقط، وقد استوعب الطهطاوي أسس التقدم والتمدن الذي هو على وجهين وجه مادي يخص المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة، ووجه فكري معنوي يخص التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب.

وقد أضفى الطهطاوي مفهوماً جديداً لمصطلح العلماء الذي كان يقصد به فيما سبق "علماء الدين والشريعة"، فقد وسّع هذا المفهوم ليشمل علماء الفنون والصناعات إذ المراد بعلماء الشريعة العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية أصولاً وفروعاً يعني الأحكام المتعلقة بالعمل عبادات ومعاملات، ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التي يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية، لأن الوسائل تشرف بشرف المقاصد ... وكذلك تحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها وتحتاج إليها في الدولة والوطن، تعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعيات والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة والاقتصاد في المصاريف والفنون العسكرية، وكل ما كان له مدخل في فن أو صناعة فإن أهله يجب إكرامهم من أهل الدولة والوطن وكذلك يجب اسداء المعروف واصطناعه لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية³³.

4. التربية وحدائة المجتمع:

فرض الواقع المتطور نفسه على الطهطاوي وهو في باريس، فجعله يفكر في شتى الطرق والأساليب التي تمكنه من اسقاط هذا التمدن على مجتمعه ولهذا التطور دور في فتح الشهية المعرفية لدى الطهطاوي، حيث لم يتوانى في النهل من علوم الغرب وترجمة مصادرها، ليتأكد الطهطاوي أن كل التقدم الحاصل في بلاد الغرب لم يكن ليحقق لأول اهتمامهم بالتربية والتعليم يرى الطهطاوي أن التربية ترتبط بالتمدن ارتباطاً جدلياً، فهي من جهة

مرتبة تؤهل الأمة للوصول إلى التقدم، فالأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضاً التقدم والتمدن على وجه تكون به أصلاً للحصول على حريتها ومن جهة أخرى فالتعليم ركن من أركان التمدن، لذلك تندرج التربية في مسار الفكر الوطني، وتصبح أساس الانتفاع بأبناء الوطن.³⁴ يجدد الطهطاوي نسبة التقدم والتمدن بنسبة الاهتمام بالتربية فهي شرط لا مناص منه لبلوغ التقدم في المجتمع، كما أنه يدعو إلى ربط التعليم بما يحتاجه الوطن.

ركز الطهطاوي مشروعه الاصلاحى على التعليم باعتباره أحد أعمدة النهضة فهو الحافظ لصلاح المؤمن في دينه ودنياه، وهذا التعليم كان السر وراء نهضة الغرب ولا شك أن ما كتبه الطهطاوي في التربية كان نتيجة تأثره بعلماء التربية من المسلمين أمثال الغزالي وابن حزم ومسكويه.³⁵

وكان من نتائج تأثر رفاة الطهطاوي بمناهج التعليم الغربية هو دعوته إلى إصلاح الأزهر، الذي كان يعتبر آنذاك أكبر مؤسسة تعليمية في مصر، وقد اعترف رفاة بفضل هذه المؤسسة التربوية عليه وذكر ذلك في مؤلفه تخلص الابريز وقد دعا إلى إدخال العلوم الحديثة في مناهج وبرامج مؤسسة الأزهر إلى جانب العلوم الدينية، كما دعا إلى الاقتباس من المدارس الأجنبية المنشأة في مصر.³⁶

قارن الطهطاوي حال معاهد العلم الاسلامية ومفهوم العلم فيها بمفهومه في فرنسا يقول: " والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم فهي دائمة في الزيادة، فإنها لا تمضي سنة إلا ويكتشفون شيئاً جديداً، فإنهم قد يكتشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسائط أو تكميلات"³⁷

أوضح كذلك إلى أن اتساع دائرة المعرفة ساعد على وجود التخصصات في العلوم وهذا في الدول الأوروبية عكس ما كان متعارف عليه في أمم الشرق، ويستحيل حسب قوله على العالم أن يحيط بكل مجالات المعرفة يقول " اعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها أمرٌ محال"³⁸.

وقد كانت قناعة الطهطاوي واضحة بأن التربية أساس كل حضارة وتقدم وأن الحضارة لا تزدهر إلا بالعلم وتاريخ دول مصر والفرس واليونان في العصر القديم يثبت ذلك في استمرار مجدهم يقول " وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة وتمكين من يشغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء"³⁹.

وما لمسناه عند الطهطاوي أنه كلما تعرض لسبل وأسباب التحضر والتمدن إلا وتحدث عن العلم والتربية بصفة عامة فيذكر أن من أسباب التمدن التمسك بالشرع، وممارسة العلوم والمعارف، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التي تعين على ذلك، واختراع الآلات والأدوات من كل ما يسهل أو يقرب الطرق التمدنية بإيجاد الوسائط والوسائل، فمما أعان على التعليم والتعلم الذي هو ركن من أركان التمدن، المطابع الأهلية...⁴⁰

ولما كان التعليم ركيزة المجتمع رأى الطهطاوي أنه ضروري لجميع فئات المجتمع دون تمييز يقول: " والتعليم الأولي ضروري لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء ... وينبغي للحكومة المنتظمة ترغيب

الأهالي وتشويقهم لما فوقه من مراحل التعليم، ففي نسبة تمدن جمهور الأمة وكسبها درجة الترقى في الحضارة وال عمران⁴¹.

إذا كانت التربية في نظر الطهطاوي مَنفَذَ نَجْدَة للأمة نحو التحضر والتمدن فيبقى على الدولة رَدّ الجميل للمربي والمعلم والمفكر بصفة عامة، وعليها أن تشجع حرية الفكر وحرية النشر بالنسبة للمؤلفين والكتاب، لأن حرية النشر حسب رفاعة أحد أركان التقدم⁴² ويضيف كذلك بخصوص الحرية العلمية "ومما أَعَانَ على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف في تدوين الكتب الشرعية والحكومية والأدبية والسياسية، ثم توسّع في حرية ذلك بنشره طبعًا وتمثيلاً"⁴³.

يوضح كذلك الطهطاوي من جهة أخرى أن الحضارة الصحيحة تقوم على قاعدتين أساسيتين الأولى تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والمدنية، والثانية توفير الثروة القومية وتنمية المنافع العامة وتطويرها، وليس ذلك بدعة في الاسلام، فإن الاسلام الصحيح لا يترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا بل يأخذ من هذه وهذه وإنما هو تقليد قدم يحاول بناء أمور الدنيا على ما ينتفع به من العلوم، ويجعل غايته القصوى بناء الحياة على أساس الفضائل الاسلامية التي مهدت للأمة العربية سبيل المجد والسؤدد في ماضيها البعيد⁴⁴، وقد رأى أن نظام التعليم في البلاد يجب أن يبنى على قاعدتين أساسيتين الأولى اعتبار الفرد أساس كل نهضة وسبيل ذلك تربية شخصيته تربية كاملة والثانية ربط التعليم بمحاجات المجتمع أي الأخذ بالتعليم النافع اجتماعياً⁴⁵.

ما يمكن استخلاصه في هذا العنصر هو أنه لاحدائه بدون تربية وتعليم ومثال ذلك هو أن أغلب رواد الاصلاح في العالم العربي الاسلامي كانت لهم مواقف هامة حول تربية الفرد والمجتمع واستنتجوا كلهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن التربية شرط لتحقيق التحضر والنهوض، ورفاعة الطهطاوي كان فقط نموذجاً من بين النماذج الكثيرة من رجال الاصلاح أمثال الأفغاني محمد عبده، والكواكبي وخير الدين التونسي، وابن باديس والبشير الابراهيمى، الذين أخذوا على عاتقهم إصلاح مجتمعاتهم والرقى بها إلى مصاف المجتمعات المتقدمة.

خاتمة:

بعد هذه الدراسة الموجزة حول دور الفكر التربوي في بعث النهضة في الوطن العربي خلصنا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- الفكر التربوي لبنة أساسية في المشروع الاصلاحى لرفاعة الطهطاوي.
- التربية ضرورية للإنسان لممارسة سنة الحياة واكتساب المهارات والخبرات .
- الأمة التي تهتم بتربية رجالها ونسائها تمضي في طريق التقدم على أساس سليم.
- التربية لا تعرف الطبقيه ولا التمييز في الجنس.
- بالعدل والانصاف في التربية نحقق مجتمع متكامل الأطراف متمدن ومتحضر.
- رقى الأمة يحدد بمدى احترام هذه الأمة للعلم والعلماء.

- التمدن مقترن بالتربية فالأمة التي تتقدم فيها التربية يتقدم فيها أيضا التمدن.

قائمة المراجع:

- جمال الدين الشيال: التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن 19م ، ط1، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، 1958.
- رفاعة الطهطاوي: المرشد الأمين للبنات والبنين ، دار الكتاب المصري، القاهرة، 2012.
- رفاعة الطهطاوي، تخلص الابريز في تلخيص باريز، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.
- سعيد اسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1998.
- علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة- الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ، 1987.
- فؤاد صروف، الفكر العربي في مائة سنة، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في تشرين الثاني، 1966، الدار الشرقية للطباعة والنشر، بيروت، 1967.
- لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث ج1، ط4 ، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987.
- محمد اسماعيل المقدم، عودة الحجاب، ط10 ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، السعودية ، 2006.
- محمد عمارة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي- سلسلة التراث- ج1-ج2- دط، 2010.
- محمد كامل ضاه- الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، ط1 ، دار البيروني للطباعة والنشر، بيروت، 1994.
- محمود فهمي حجازي - أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي- الهيئة العامة للكتاب، 1974.
- ملكة أبيض، التربية في الوطن العربي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2012.

الهوامش:

- ¹ د. سعيد اسماعيل علي - الفكر التربوي العربي الحديث- سلسلة عالم المعرفة- الكويت 1998 - ص10.
- ² د. فؤاد صروف - الفكر العربي في مائة سنة - بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في تشرين الثاني 1966 الجامعة الأمريكية بيروت - الدار الشرقية للطباعة والنشر - بيروت 1967 ص397
- ³ المرجع السابق ص 399-400
- ⁴ رفاعة الطهطاوي: رائد الفكر العربي الحديث ولد في مدينة طهطا عام 1801 - درس بالأزهر وبعدها رحل إلى فرنسا عام 1826 تبحر في مختلف العلوم ليعود إلى مصر عام 1831 - اشتغل بالصحافة والترجمة وأسس مدرسة الألسن له مؤلفات عدة توفي عام 1873 (أنظر محمد عمارة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ج1)
- ⁵ محمود فهمي حجازي - أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي - الهيئة العامة للكتاب 1974 ص93
- ⁶ جمال الدين الشيال - التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن 19م - مكتبة النهضة المصرية القاهرة. ط1، 1958، ص49
- ⁷ محمد عمارة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ، سلسلة التراث ج1، 2010، ص47.
- ⁸ نفسه ص 48.
- ⁹ عمود فهمي حجازي ص93.94
- ¹⁰ نفسه ص 94
- ¹¹ نفسه ص 95
- ¹² المرجع السابق ص 96
- ¹³ محمد عمار: الأعمال الكاملة ج2 ص 277
- ¹⁴ محمد عمارة: الأعمال الكاملة ج2 ص 277

- 15 نفسه ص 279
- 16 محمد كامل ضاه: الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر دار البيروني للطباعة والنشر بيروت ط1 1994 ص 74.
- 17 المرجع السابق ص(ن)
- 18 لويس عوض تاريخ الفكر المصري الحديث - مكتبة مدبولي - القاهرة - ج1، ط4 - 1987 - ص260.
- 19 محمد اسماعيل المقدم. عودة الحجاب، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط10 السعودية 1427هـ/2006م، ص25
- 20 رفاعة الطهطاوي تحليص الايريز في تلخيص باريز الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - ج3 - ص391
- 21 لويس عوض تاريخ الفكر المصري الحديث - ص262.
- 22 محمد عمارة: الأعمال الكاملة ج1 ص203.
- 23 محمد عمارة الأعمال الكاملة ج1 ص209.
- 24 علي المحافظة الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة - الاهلية للنشر والتوزيع - بيروت - د ط - 1987 - ص186.
- 25 محمد عمارة الأعمال الكاملة ج1 ص 211
- 26 المصدر السابق ص212.
- 27 محمد عمار، الأعمال الكاملة، لرفاعة الطهطاوي، سلسلة التراث، ج1 2010، ص 279.
- 28 محمد عمار، الأعمال الكاملة، لرفاعة الطهطاوي، سلسلة التراث، ج2، ص 495.
- 29 محمد عمارة، الأعمال الكاملة، لرفاعة الطهطاوي، سلسلة التراث، ج1، ص 225.
- 30 نفسه، ص 226.
- 31 هو أحد علماء البعثة العلمية الفرنسية التي رافقت نابليون عند غزوة مصر، أشرف على نشر موسوعة "وصف مصر" وبقي في القاهرة بعد رحيل جيوش نابليون وتقرّب من محمد علي الذي عينه مشرفاً علمياً على البعثات في فرنسا.
- 4 محمد كامل ضاه، الصراع بين التيارين الديني والعلماء في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني للطباعة والنشر - بيروت، ط1، 1414 هـ، 1994م، ص 58.
- 33 محمد عمارة، الأعمال الكاملة، لرفاعة الطهطاوي، سلسلة التراث، ج1، ص 285.
- 34 رفاعة الطهطاوي الرشد الأمين للبنات والبنين، تقلّم معنى أحمد أبو زيد، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1433 هـ/2012م، ص 62.
- 35 نفسه، ص 63.
- 36 المرجع السابق، ص 65.
- 37 محمود فهمي حجازي، ص 114.
- 38 نفسه، ص (ن)
- 39 نفسه، ص 116.
- 40 محمد عمارة، الأعمال الكاملة، لرفاعة الطهطاوي، سلسلة التراث، ج2، ص 502.
- 41 نفسه، ص 287.
- 42 محمود فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث، ص 113.
- 43 نفسه، ص 114.
- 44 د. ملكة أبيض، التربية في الوطن العربي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2012، ص 120.
- 45 المرجع السابق، ص 121.